

فاطمة الزهراء (عليها السلام) وتثبيت الأمة على الصراط المستقيم المرجع الديني
الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)



بسم الله الرحمن الرحيم

السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وتثبيت الأمة على الصراط المستقيم(1) المرجع الديني الشيخ
محمد اليعقوبي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المخلوقات وسادتهم أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين
الطاهرين.

السلام عليكم أيها الإخوة المؤمنون ورحمة الله وبركاته

ثلاثة أيام في الإسلام أراد الله تبارك وتعالى لها أن تثبت عقيدة الأمة وتصح مسيرتها وتحفظ الإسلام
نقياً ناصعاً سليماً من الزيغ والانحراف الذي يريده طلاب الدنيا لتحقيق مصالحهم الذاتية، ومثّلت
هذه الأيام أهم منعطفات في حياة الأمة:

الأول: يوم الغدير وبيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) إماماً للأمة وخليفة لرسول

□ (صلى □ عليه وآله وسلم) ومكملًا لرسالته المباركة، فجعله □ تعالى يوم إكمال الدين وإتمام النعمة؛ لأنه يوم خلود الرسالة وعدم اندثارها بموت صاحبها رسول □ (صلى □ عليه وآله وسلم).
الثاني: يوم القيام الفاطمي حينما انقلبوا على الأعقاب بعد وفاة رسول □ (صلى □ عليه وآله وسلم) كما أخبر به □ تعالى: [أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ] (آل عمران:144)، وهو يوم الفرقان في معركة التأويل التي خاضها أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد وفاة رسول □ (صلى □ عليه وآله وسلم) بحسب ما ورد في حديث النبي (صلى □ عليه وآله وسلم) لأمير المؤمنين (عليه السلام): (تقاتل على التأويل كما قاتلتُ على التنزيل) ([2]) أي تخوض حربَ تصحيح المفاهيم والسلوكيات وتقويم الانحراف ووضع النقاط على الحروف وبيان التفاصيل.

الثالث: يوم عاشوراء، يوم التصحية بالقرابين النفيسة لفضح الحكام المستبدين الفاسقين المحاربين □ ورسوله (صلى □ عليه وآله وسلم)، ومن بعد يوم عاشوراء تميّز خط الإمامة والخلافة الإلهية عن خط الملك والسلطنة والصراع على الحكم [لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِ سُنَّةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِ سُنَّةٍ] (الأنفال:42) وانتهى عصر خلط الأوراق وتداخل الخنادق.

ولو أطاعت الأمة ربّها وما أنزله على رسوله الكريم (صلى □ عليه وآله وسلم) في ما بلّغ في اليوم الاول (يوم الغدير) لما احتاجت إلى اليوم الثاني وهو يوم القيام الفاطمي الذي دفعت فيه الزهراء (عليها السلام) حياتها ثمناً له وهي في عمر الزهور حيث لم تتجاوز ثمانية عشر ربيعاً.

ولو استُمتعت نصيحة الزهراء (عليها السلام) في قيامها المبارك وأعدت الأمة الحق إلى نصابه ودفعته إلى أهله وأذعنت لحق أمير المؤمنين (عليه السلام)، لما حصل الانحراف والانحدار بالأمة حتى تطلّبت تقويم المسار سفك دم سبط رسول □ (صلى □ عليه وآله وسلم) وسيد شباب أهل الجنة وسبي عقائل النبوة من بلدٍ إلى بلدٍ يتصفح وجوههن الأعداء.

ولأجل الحفاظ على الإسلام النقي الأصيل لا بد من إحياء هذه الأيام الثلاثة بما تستحقه، وإطهار معانيها الحقيقية، وقد مرّت قرون على الأمة لم يشهد فيها اليومان الأولان حقهما من الاهتمام الواسع إما تقيّةً أو مجاملةً لئلا تجرح مشاعر الآخرين (والحق أحق أن يُتدبّع) [وَإِذْ أُحْزِقُ أَنْ تَخْشَاهُ].

وبقي يوم الحسين (عليه السلام) وحده معطاءً كريماً حفظ عقيدة الأمة وحماها من الانحراف والزيغ، فلو نال اليومان الآخرا ما ناله يوم الحسين (عليه السلام) لاتسعت البركات ولتحقق الفتح بإذن □ تعالى، وهو ما نشهد علائمه وطلّاعه اليوم.

فالأمة مدينة بصلاحها واستقامتها وثباتها على الدين وسعادتها في الدنيا والآخرة بعد رسول □ (صلى □ عليه وآله وسلم) لأمير المؤمنين ولفاطمة الزهراء (صلوات □ عليهما) وللقلة القليلة التي ثبتت معهم وحفظت نهجهم وآثارهم للأجيال، وهم قليلون بالعدد إلا أن عطاءهم كبير عمّ بركاته كل الأجيال. لقد كان للسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) الأثر الحاسم في تثبيت الأمة عندما انزلت يوم الانقلاب على الأعقاب، ولم يستطع أحد أن يقف موقفها فقد ضعفت الهمة وجبنت القلوب وخارت القوى وارتفع صوت

الشیطان، وعمّت الشبهات وتبلّدت العقول فلم تدرك خطورة الموقف والنتائج الكارثية المترتبة عليه، وكان كل همّها (عليها السلام) أن تحفظ مسيرة الإسلام على الصراط المستقیم.

أيها الأحبة:

إن مفردة الثبات والتثبيت من القضايا التي اهتم القرآن الكريم بمعالجتها لأن الإنسان يتعرض في هذه الدنيا إلى ابتلاءات كثيرة ومزالق خطيرة لا ينجيه منها إلا طلب التثبيت من الله تعالى والعمل على تحصيل ذلك، لذا كان مطلب المؤمنین في ساحات المواجهة مع الشیطان والنفس الأمّارة بالسوء والأعداء من الناس هو [رَبِّدْنَا أَفْرَغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَفْئِدَانَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] (البقرة: 250) [وَكَأَيِّن مِّن زَبَّيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَفْئِدَانَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] (آل عمران: 147). وكانت صفة الثبات عند مزالق الأقدام هي من الصفات البارزة في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التي وصفه بها أمير المؤمنين (عليه السلام) في دعاء الصباح: (والثابت القدم على زحاليها في الزمن الأول) ([3])، وجسّد هذا الثبات في حياته الشريفة حيث لم يجمال ولم يداهن ولم يضعف ولم يقصّر، والشواهد على ذلك كثيرة.

وتأسى به أهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) والصالحون من أتباعه، وكان ديدنهم الثبات والمداومة والصبر والمصابرة حتى آخر نفس ولا معنى لـ(التقاعد) في حياتهم، وبهذا أمرت الأحاديث الشريفة بحيث جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها) ([4]).

ونحن في هذا الزمان بأمرّ الحاجة إلى التثبيت لكثرة الشبهات وانتشار الضلال والفساد واجتماع الأعداء وتفرّق الإخوان، ولا يتحقق الفوز وحسن الخاتمة إلا بالثبات على الاستقامة، عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) قال: (من ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف شهيد، مثل شهداء بدر وأحد) وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: والذي بعثني بالحق بشيراً، إن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر) ([5]).

ولا ينال ذلك إلا بالألطف الإلهية الخاصة والعمل الجاد لتحقيقها، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل إن شاء ثبتك فلا يجعل لإبليس عليك طريقاً) ([6])، وفي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ستصيبنكم شبهة فتبكون بلا علم يرى ولا إمام هدى، لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق

قلت: وكيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا اﷲ يا رحمن يا رحيم، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك([7])، ومن أدعية القرآن الكريم [رَبِّدُنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا] (آل عمران:8) وفي مجمع البيان: (قيل: لما نزلت آية {وَلَوْ لَا أَنْ تَيَسَّرَ لَكِ الْإِسْرَاءُ} [الإسراء : 74] قال النبي (صلى اﷲ عليه وآله): اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبداً) ([8]).

فلا يجوز لنا أن نغترِّ بمقدار الإيمان الذي نحن عليه والالتزامات الظاهرية التي نؤديها ما لم تقترن بالثبات على الإيمان والاستقامة في موارد الامتحان والابتلاء عندما تتعرض الأقدام للانزلاق بسبب اتباع الهوى والركون إلى الدنيا والتفرُّق عن الهادين إلى الحق.

وقد دلَّتنا الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على ما يثبَّت الإيمان في قلوبنا ويدفعنا إلى العمل الصالح وهو اتباع أمير المؤمنين (عليه السلام) والسير على نهجه والتمسك بولايته، عن النبي (صلى اﷲ عليه وآله وسلم) قال: (ما تَيَسَّرَتْ اﷲ حبَّ علي في قلب مؤمن فزَلَّتْ به قدم إلا تَبَّتْ اﷲ قدماً يوم القيامة على الصراط) ([9]).

وعنه (صلى اﷲ عليه وآله وسلم): (أُتِيَتْكُمْ عَلَى الصَّرَاطِ أَشَدُّكُمْ حُبًّا لِأَهْلِ بَيْتِي) ([10])، وورد عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) في تفسير قوله تعالى: [وَلَوْ أَرَنَّا نَجْمَهُمْ فَعَلَّوْا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا] (النساء:66) عن الصادق (عليه السلام): (ولو أن أهل الخلاف فعلوا ما يوعظون به في علي (عليه السلام) ([11])).

ولقد أمرنا اﷲ تعالى بالثبات والصمود على الدوام ودعانا إلى تحصيل أسباب الثبات والاستقامة على الإيمان، بطاعة اﷲ تبارك وتعالى وطاعة رسوله (صلى اﷲ عليه وآله وسلم) والصبر وترك التنازع والخلاف المؤدي إلى الانهيار والفسل والإحباط [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقَيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ] (الأنفال: 45-46) [وَلَوْ أَرَنَّا نَجْمَهُمْ فَعَلَّوْا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا] (النساء:66).

ومن الوسائل الوثيقة لتحصيل الثبات هي التقوى، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إنما هي نفسي أروضا بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق) ([12]).

والورع عن محارم اﷲ تعالى، عن الإمام الصادق (عليه السلام) وقد سئل عما يثبِت الإيمان في العبد، قال: (الذي يثبته فيه الورع، والذي يخرج منه الطمع) ([13]).

ولا يثبِت الإيمان ويؤتي ثماره إلا بالعمل الصالح، عن الإمام الصادق (عليه السلام): (ولا يثبِت الإيمان إلا بعمل) ([14]) وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (مرّ رسول

اﷲ (صلى اﷲ عليه وآله) برجل يغرس غرساً في حائط له، فوقف له وقال: ألا أدلك على غرس أثبت أصلاً

وأسرع إيناعاً وأطيب ثمرًا وأبقى؟ قال: بلى فدُلَّني يا رسول الله، فقال: إذا أصبحت و أمسيت فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وأكبر، فإن لك إن قلته بكل تسبيحة عشر شجرات في الجنة من أنواع الفاكهة وهن من الباقيات الصالحات) ([15]).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (من زهد في الدنيا، ولم يجزع من ذلها، ولم ينافس من عزها، هداه الله بغير هداية من مخلوق، وعلمه بغير تعليم، وأثبت الحكمة في صدره وأجراها على لسانه) وفي الحديث (من زار الحسين في بقيعه ثبته الله على الصراط يوم تزل فيه الأقدام) ([16]).

إن التثبيت على الإيمان والاستقامة لطفٌ يؤتيه الله من يشاء من عباده [وَلَوْلَا أَنْ تَدْبِرْتُمْ أَفْئِدَتَكُمْ لَعَدَدْتُمْ كَيْدَتَكُمْ تَرَكْتُمْ إِيْلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا] (الإسراء: 74) [قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّرْتَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] (النحل: 102) [وَلِيُذَيِّبَهُمْ بِلَاغِ بَلَاءٍ عَلَيْهِمْ أَذَلُّوا وَأَيُّكُمْ يَسْتَبِيحُونَ] (الأنفال: 11) [كَذَلِكَ لِيُذَيِّبْتَهُمْ فُؤَادًا] (الفرقان: 32).

ولكنه مع ذلك ينطلق من داخل النفس المطمئنة بالإيمان والمحبة لله تبارك وتعالى الذين ذكرهم في كتابه الكريم ووصفهم بأنهم يقومون بأفعال الخير انطلاقاً من رغبتهم النفسية في التثبيت والمداومة على الطاعة: [وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُبْتَغَاءَ مَرْضَاتَ اللَّهِ وَتَثْبِيحًا مِنْ أَنْ نَفْسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْهُ أُكُوفًا ضِعْفَيْنِ فَإِنَّ لَكُمْ يَصِيدَهَا وَابِلٌ فَطَالٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] (البقرة: 265).

فإذا صدق العبد مع ربه وسعى بالدعاء والعمل للثبات على الإيمان والهدى ثبتته الله تعالى وآمنه وأسعده في الدنيا والآخرة [يُثَبِّرْتَهُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ] (إبراهيم: 27)، وورد في تفسيرها عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه وعن شماله ليضلَّه عما هو عليه فيأبى الله عز وجل له ذلك) ([17]).

وهذا الخير للأمة هو ما أرادتته الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها فدعتهم إلى أن يأبوا إلى الركن الشديد الثابت أمير المؤمنين (عليه السلام) وحذرت من مخالفته: (ويحهم أن يزعزعوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطَّابِيعِينَ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالِدِينِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمَبِينُ) [وَلَوْلَا أَنْ هَلَكَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَّتْ حَنَاتُ عِلَائِيهِمْ بِرَكَاتٍ مِنْ سَمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ] (الأعراف: 96) وقد حذرتهم من عاقبة انقلابهم وأنهم بذلك يؤسسون لواقع فاسد وفتنة عظيمة تحرق بشرها كل الأجيال اللاحقة: (أما لعمرى لقد لقيت، فندطرة ريثما تُنتج) ([18])، ثم احتلبوا ماء القُعب ([19]) دماً عبيطاً وزعافاً مييداً، هنالك يخسر المبتلون، ويعرف التالون غباً ما أسس الأولون).

وأنتم ايها الفاطميون المواليون بإحيائكم للشعائر الفاطمية ونصرتكم ﷻ تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإظهار المودة لأهل البيت (عليهم السلام) تتمسكون بحبل وثيق من التثبيت الإلهي عند المزالق في الدنيا، وعلى الصراط في الآخرة، قال تعالى: [إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُذْهِبِ اللَّهُ أَسَدَاتِ أَعْدَائِكُمْ] (محمد:7).

وأي نصره ﷻ تعالى أعظم من نصره أوليائه وإظهار حقهم، وإنصافهم من ظالمهم، فنصرة الزهراء (عليها السلام) وإنصافها من أعظم موارد الحديث الشريف عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه، ثبتت له قدمه يوم تزل الأقدام) ([20]).

وقد من ﷻ تعالى عليكم بسبب فاعل آخر للتثبيت وهو انتظار فرج إمامنا المهدي المنتظر (أرواح العالمين له الفداء) والأمل بإقامة الدولة الكريمة على يديه، روى علي بن يقطين عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (قال لي أبو الحسن (عليه السلام): الشيعة تُربى بالأمان منذ مائتي سنة) وشرحها علي بن يقطين بقوله: (فلو قيل لنا: إن هذا الأمر لا يكون إلى مائتي سنة أو ثلاث مائة سنة لقست القلوب ولرجع عامة الناس عن الإسلام، ولكن قالوا: ما أسرع وما أقرب تألفاً لقلوب الناس وتقريباً للفرج) ([21]).

ولكم أيها الثابتون على الحق في زمان الغيبة وردت البشرية من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في كتب الشيعة والسنة قال: (سيأتي قومٌ من بعدكم، الرجل الواحد منهم له أجر خمسين منكم، قالوا: يا رسول الله نحن كنا معك بيدٍ وأُذُ وحنين ونزل فينا

القرآن! فقال: إنكم لو تحمّلون ما حُمِّلوا لم تصبروا صبرهم) ([22]).

([1]) الخطاب السنوي الذي يلقيه سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظلّه الشريف) على عشرات الآلاف من المؤمنين الذين يحيون شعائر الزيارة الفاطمية عند أمير المؤمنين (عليه السلام) في النجف الأشرف لسنة 1433.

([2]) بحار الأنوار: 37/191، وفي السنن الكبرى للنسائي: 5/154: (علي يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله).

([3]) الزحاليف: جمع زحلوفة وهو المكان شديد الزلق لانحداره وملسه، والزمن الأول بحسب الظاهر هو زمن الخلق والإشهاد وأخذ العهد [وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذُررَ يَتَتَّهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ وَعَلَىٰ أُنْفُسِهِمْ أَلَسَتْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ] (الأعراف:172).

([4]) ميزان الحكمة: 2/1410.

([5]) الحديثان في ميزان الحكمة: 1/180.

- [6] الكافي: 2/425.
- [7] ميزان الحكمة: 1/181.
- [8] تفسير الصافي: 4/436.
- [9] ميزان الحكمة: 1/136.
- [10] ميزان الحكمة: 2/1610.
- [11] تفسير الصافي: 2/266 عن أصول الكافي.
- [12] نهج البلاغة: 3/171 من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامله على البصرة وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها.
- [13] ميزان الحكمة: 1/200.
- [14] الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي: 1/434.
- [15] الكافي: 2/506.
- [16] الحديثان في ميزان الحكمة: 2/1172.
- [17] تفسير الصافي: 4/239 عن الفقيه وتفسير العياشي.
- [18] تنتج أي تلد والنتاج هو الوضع أو الولادة للبهائم. لسان العرب: مادة (نتج).
- [19] القُعب: القدح الضخم، وقيل: قدح من خشب مقعر، وقيل: هو قدح إلى الصغر. لسان العرب: مادة (قعب)، واللوحه التشبيهية التي رسمتها الزهراء (عليها السلام) بليغة للغاية صورت فيها الفتنة وكأنها دابة ستولد بعد حين من لقاح الفتنة ثم يكون جميع ما يجنونه ويحتلبونه منها الدم العبيط.
- [20] ميزان الحكمة: 1/659.
- [21] الكافي: 1/369 والغيبة للطوسي: 207 وعنهما البحار: 52/102.
- [22] الغيبة للطوسي: 275 والخرائج: 284 وعن الطبراني الكبير: 10/225 وسنن أبي داود: 4/123 وابن ماجه: 2/1330 والترمذي: 5/257 وغيرها.